

الخلفيات الفلسفية في المناهج النقدية الحديثة

د.أحمد دكار- جامعة تلمسان

عندما نتحدث عن الموضوعية فإن العلم بهذا المعنى ليس ملكاً لأحد وحين تثبت حقيقة علمية ويكون ذلك طبعاً ثابتاً نسبياً لأن حقيقة معينة مقبولة ضمن أطر مرجعية علمية معتمدة قد تنقلب رأساً على عقب بعد حين عندما تتوفر شروط الارتداد عنها وهذا ما حصل لبعض الحقائق العلمية، فالعلم يقوم بعضه على بعض رأسياً وتتآزر جهود العلماء أفقياً فيرتفع العلم وتتسع قاعدته شيئاً فشيئاً، إن الأمر يزداد غموضاً وتعقيداً عندما ننقل هذه التساؤلات إلى العلوم الإنسانية فتلجأ الدراسات إلى المناهج والنقد من أجل الخروج من متاهات والولوج في إيضاحات يتطلبها الموقف⁽¹⁾.

إن هذا الانتقال لا يتم دائماً في اتجاه واحد مما يستدعي تدخل الفكر الفلسفي، غير أن العمق والقوة والاتساق والاستناد إلى فلسفة أو نظرية في المعرفة لا يعني بحال أن أية نظرية أدبية خالية من الثغرات أو نقاط الضعف فكل نشاط ثقافي مرتبط بمراحلته الاجتماعية وكل نشاط في نظرية الأدب مرتبط أيضاً بالوضع التاريخي والأدبي الذي استند إليه في استنباط آرائه وأفكاره ولعل التساؤلات التي تُطرح حول ماهيات الأدب ومن يتحكم فيه هي التي جعلتنا نبحت عن الخلفيات الفلسفية للمناهج النقدية الحديثة وبديهي كذلك أن العلاقة تحصيل حاصل، لأن النظريات الأدبية والنقد الأدبي انطلاقتهما انطلاقة فلسفية، فنظرية الأدب ماهي إلى مجموعة من الآراء والأفكار القوية والمتسقة والعميقة والمتراصة والمستندة إلى نظرية في المعرفة أو فلسفة محددة.

وإذا أردنا أن نثبت ذلك فلنعد إلى (النظرية والنقد) لقد أظهرت الدراسات المقارنة مصطلحاً طريفاً هو علم المعجم النقدي الذي قال به "هاري ليفين" في كتابه "مقالات في الأدب المقارن" وعرفه بأنه منهج تعريف المصطلحات الأساسية⁽²⁾.

إن بيان العلاقة بين الأدب والقراء أي بين أثر الأدب في المتلقين سواء كان على مستوى الموضوعاتي أو النقدي فإنه ينطلق من خلفيات فلسفية بغض النظر عن الاتفاق الحاصل عن ذلك، وكل ذلك يجعلنا نعتقد أن الأركان الثلاثة للأدب نشأته، وطبيعته، ووظيفته، لا يكتب لها الاستمرارية ما لم تستند على خلفية فلسفية.

ولا يمكن فصل المشاكل المنهجية في الدراسات الأدبية عن مشكل المناهج في العلوم الإنسانية، وإذا أردنا أن نقف على ذلك بصورة أدق وأعمق لابد من الرجوع إلى البعد الاستمولوجي لحل هذه النظريات الذي يتراوح تطبيقها دقةً وتعقيداً وعموماً وتناقضاً في حالات كثيرة بين مختلف فروع المعرفة من أدب وعلوم إنسانية وعلوم بحتة.

لقد قامت النظرية التكاملية على أساس وهو استحالة تحديد موقع الجسيم وتحديد سرعته في آنٍ واحد، هذا في العلوم الدقيقة مما حذى "بيور" إلى الدعوة إلى تطبيق وجهة نظر تكاملية على ميدان العلوم الإنسانية للتغلب على المشاكل التي يطرحها منهاج هذه العلوم وفي مقدمتها الجمع بين الجانب السطاتيكي والجانب الدينامي الحركي في دراسة واحدة، ويظهر ذلك في مجال التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع، هذا التقابل بين الذات والموضوع عند دراسة هذه العلوم ولا بد من الإشارة إلى أن العلوم الإنسانية قد عرفت ولا زالت تعرف مناهج مختلفة ومتعارضة مما أحرّ تقدم البحث فيها وبالتالي جعل نتائجها موضع اختلاف بين الباحثين، فقلّت بذلك حصيلتها العلمية، وأصبحت علومًا كثيرة المناهج قليلة النتائج.

ونظرة إلى النص الأدبي وهو وجه لوجه أمام المنهج هدفه إخراج النص بواسطة المنهج الذي يفرض نفسه على الدارس من حالة النظام إلى النظام أو من حالة اللانظام إلى النظام، كل ذلك يجعل الباحث يتجنب الوقوع في المتناقض أي إخراج النص من حالة النظام إلى اللانظام أو من اللانظام إلى اللانظام، وكل ذلك يبدأ من المنهج الذي يحافظ على مستويات القراءة (القراءة الاستكشافية والقراءة التأويلية، والقراءة التأملية).

لقد ظلت العلوم الإنسانية طوال تاريخها الحديث تنشذ الصبغة العلمية الحقة، أي الدراسة الموضوعية والوصول إلى قوانين تكون في صرامتها كقوانين العلوم الطبيعية إلا أن الأمر يبدو غير ممكن لعدة أسباب منها:

أ- الظاهرة الإنسانية بطبيعتها الشكلية والداخلية لا تخضع لذلك.

ب- النتيجة المطلقة مرفوضة لأنها تخالف قاعدة النسبية التي تنطلق منها كل المعارف وتعود إليها علمًا أن العلم بحث نظري.

إن النزعة الوضعية التي نادى بها أوغست كونط هي نزعة فلسفية لازالت جذورها قائمة إلى يومنا هذا وبألوان معرفية متعددة.

ولعل ما نعيشه اليوم من اضطرابات في المناهج تؤكد أن البحث عن النظام لدراسة أي ظاهرة أدبية كانت أو تاريخية أو نفسية، لا بد من العودة إلى جذورها الفلسفية ولو بقراءة نقدية معاصرة.

وعلى العموم لقد بقي مشكل المناهج في العلوم الإنسانية هو مشكل اختياري بين الطريقة الاستنتاجية والتجريبية والتاريخية والطريقة التي تضع الكل وضعًا أوليًا بصرف النظر عن تكوينه وأجزائه وكرد فعل لكل ذلك قامت البنيوية لتحاول التغلب على الصعاب السابقة والطموح أكثر من غيرها إلى جعل العلوم الإنسانية تحقق حلمها وهو تطبيق المنهج العلمي واكتشاف القوانين وصياغتها صياغة رياضية، إلا أنها في الحقيقة لم تتخلص من الجذور الفلسفية التي اتهمت غيرها في الوقوع فيها، ومن هنا يمكننا القول أن المناهج النقدية الحديثة غير مفصولة عن مشكلة المعرفة وهي تعتبر أكثر القضايا حيوية في الفكر الإنساني حتى باتت تمثل ركن الفلسفة الحديثة والمعاصرة وأن أي نقاش فكري أو فلسفي لفهم الكون والعالم لن يكون ذا قيمة ما لم تحسم مسألة المعرفة الإنسانية بتحديد قيمتها أو مصادرها ومناهجها الصحيحة، فعندما تُطرح مشكلة في المعرفة الإنسانية لا يعني ذلك أبدًا أن المعرفة بحد ذاتها هي المشكلة، بل الوصول إليها بالشروط التي تُؤمنُ العلاقة الصحيحة مع الأشياء ضمن رؤية متماسكة عن العالم، وتحول المشكلة هنا إلى معنى عائقي الذي يمنع بنظر الفيلسوف من الوصول إلى الحقيقة⁽³⁾.

والطرح الاستمولوجي لعملية التحول المعرفي بوجهة نقدية صارمة فالتحولات المنهجية في هذا المجال تبقى محدودة نظراً للوسائل المستخدمة وهذا ما نلاحظه عند طلبتنا أثناء التحليل للظواهر المراد دراستها وغالباً ما تخلو من التضمينات المنهجية التي تساعد على التحليل ثم التركيب، وهنا تظهر قيمة وخطورة المنهج النقدي والخلفية الفلسفية التي يبنى عليها ولا بد من الإشارة هنا إلى الثنائية التي يواجهها الباحث (الواقع والحقيقة)، فإذا كان الواقع تعبير عن ماهو موجود فالحقيقة تعبير عن ما يجب أن يكون عليه الشيء والصلة بين الواقع والحقيقة تتلخص في أن بعض الوقائع هي حق وحقيقة وبعضها ليس كذلك بل هي باطلة وبعض الحقائق لم تصبح واقعاً بعد، لأن المعرفة عبارة عن الاطلاع على الواقع أو العثور على الواقع ولا يتم ذلك إلا إذا رجعنا إلى المنهج الذي بدوره يعود إلى الجذور الأولى للفكرة، سواء كان ذلك رأي أو تصور أو حتى نظرية، وهكذا تكون المعرفة بالخلفية المنهجية (هي ذلك العلم الذي يبحث حول معارف الإنسان ويقيم ألوأها ليميز الصحيح من الخطأ) وإن كان ذلك يظهر بعيد المنال في العلوم الإنسانية⁽⁴⁾.

إن نظرية المعرفة أسست وطُرحت بصورة علم مستقل في أوروبا منذ حوالي ثلاثة قرونٍ وكان أول من كتب فيها الفيلسوف الإنجليزي جون لوك عندما نشر عام 1690 في كتابه مقالة في التفكير الإنساني، وعد أول بحث علمي في أصل المعرفة وماهيتها وحدودها ودرجة اليقين بها، ثم جاء بعده الفيلسوف الألماني كانط (1724-1804) ليختص في فلسفة المعرفة وأدواتها.

فنقد العقل عنده أساس تكوين المعارف عند الإنسان، وفي رؤية تحليلية يرى بعض المحققين المعاصرين ضرورة التركيز في علم المعرفة على نشاط الذهن وعلاقته بالخارج ولعل هذا ما يقوم به الناقد أثناء تحليله وتفسيره لمحتويات النص بواسطة المنهج، لأن ثنائية الذهن والخارج هي المحور الأساسي في البحث المعرفي وعليه يجب التركيز على المسائل الهامة التي يتكون منها علم المعرفة والتي تعد أدوات منهجية لا يمكن الاستغناء عنها ونذكر منها:

أ- إثبات الوجود الذهني في مقابل الوجود العيني فأبي نفور عقلي من ذلك هو نفور من المعرفة ذاتها.

ب- دور الذهن التي يتخطى الحالة المرآتية العاكسة للخارج إلى الإضافة والإنتاج للمعرفة وهو ما يفسر إدراك المعدومات الخارجية والمفاهيم الثانية المنطقية والفلسفية ولا بد أن يتدخل المنهج في ذلك لتحديد الأبعاد التي تطلب منه، ولسنا هنا بصدد صحتها أو خطئها.

ج- دور الإدراك في معرفة الخارج لارتباطه به، دون أن نحمل المعطيات الراهنة والدائمة.
د- المعرفة القبلية هل هي موجودة فعلاً؟ دور الشك العلمي الذي يدفع إلى الملاحظات والفرضيات.

هـ- كيفية انتزاع الذهن للمعقولات الثانية المنطقية والفلسفية من المعقولات الأولية (الصورة القبلية والصورة البعدية للشيء المراد إدراكه)⁽⁵⁾.

إن الخلفية الفلسفية للمناهج النقدية تظهر أساساً في عملية النقد في حد ذاتها التي هي دراسة الجوانب المختلفة لأية دعوى أو أية فكرة وأيضاً دراسة زواياها وتفصيلها المختلفة للوقوف على مدى كون بعض جوانبها منطقية ومقبولة ومدى كون الجوانب الأخرى غير منطقية ومرفوضة، لذلك الإنسان يتمتع في الواقع عندما يتقبل فكرة أو كلاماً أو دعوى ببساطة وبدون أن يسبر غورها، أو يتحرى العناصر التي تكونها والأسباب التي أدت إلى نشوئها.

هوامش:

- 1- في نظرية الأدب- د. شكري عزيز الماضي- دار الحداثة- مصر- ط1- 1986- ص14.
- 2- مجلة الفيصل- مجلة ثقافية شهرية- يوليو 1988- العدد 88- ص85.
- 3- نظرية المعرفة والإدراكات الاعتبارية عند العلامة الطباطبائي- علي جابر آل صفا- دار الهادي بيروت- لبنان- ط1- 2001- صفحات متفرقة.
- 4- نفسه- ص55.
- 5- مدخل إلى علم الكلام الجديد- محمد مجتهد شبستري دار الهادي- بيروت- لبنان- ط1- 2000- ص21.